٦

النسيب عند شعراء المائة الثامنة في كتاب الكتيبة الكامنة

the courtship according to the poets of eight hundred in the book of Al-kateeba Al-kamina

د. مروة مرشد محمد

Dr. Marwa Murshid Mohamad

الجامعة العراقية/ كلية التربية للبنات

Iraqi University

College of Education for Girls

الملخص

يتناول البحث أحد أهم الأغراض في الشعر العربي، الا وهو الغزل "النسيب"، وقد دُرس هذا الموضوع بعدة صور متنوعة، وبعد تدقيق وتمحيص لم أجد أحد من الباحثين قد تطرق للغزل أو النسيب في دراسة منفصلة له عن كتاب (الكتيبة الكامنة في من لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة) لابن الخطيب، وبهذا سيعد البحث بشكل: مقدمة، التعريف بالنسيب والغزل والتشبيب والفرق بينهم، ثم تفصيل القول في الموضوعات الغزلية وكيف تناولها الشعراء.

الكلمات المفتاحية: (النسيب، الغزل، ابن الخطيب، الكتيبة الكامنة)

Abstract

The research deals with one of the most important purposes in Arabic poetry, namely ghazal “Naseeb”, and this topic has been studied in many different forms, and after scrutinizing and scrutinizing, I did not find any of the researchers who dealt with ghazal or Naseeb in a separate study of it from the book (Al-Kutaybah Al-Kamineh in Who We Met in Andalusia from the Poets of the Eighth Hundred) by Ibn Al-Khatib, and thus the research will be prepared in the form of an introduction, a definition of Naseeb, ghazal, Tashbib and the difference between them, then a detailed statement on gazal topics and how poets dealt with them.

Keywords: (the courtship. Spinning. Ibn al-Khatib. Al-kateeba Al-kamina)

مقدمة

يعد (الكتيبة الكامنة في من لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة)، للمؤلف لسان الدين بن الخطيب، من الكتب التي اتحفت المكتبة العربية عامة والأندلسية خاصة، فقد ضم المَؤلف في طياته تراثاً أدبياً خالداً بخلود الاندلس في عقولنا وقلوبنا، ومما حواها قصائد تجسد تنوع الأغراض الشعرية التي لونت دواوين شعراء الاندلس، من الغزل والرثاء إلى الفخر والوصف، ولم يفت ابن الخطيب أن يسترسل بإيجاز عن أحوال شعراء المائة الثامنة، وعن تاريخ تلك الحقبة من صراعاتِ

وحروب، والتي لم تشهد هوادة بين فترة وأخرى، وكان لأسلوب لسان الدين وقع في نفس المتلقي؛ حيث جمع بن الجزالة والعمق من جهة والبساطة والسلاسة من جهة أخرى.

ولو أردنا أن نعرج عن صاحب الكتاب بعجالة، فابن الخطيب (٧١٣-٧٧٦هـ)، هو أديب فذ وشاعر لا يشق له غبار، ووزير الوزارة العظمى المحنك، موسوعي له في الطب والفلسفة والتحقيق والتاريخ وغيرها ما له، خير من أنجبت غرناطة، فهو يقف في الصف الأول من بين أشهر من كتب باستفاضة عن القرن الثامن الهجري في الاندلس، وله من المؤلفات ما تجاوز الستين مؤلفاً، وما نزال ننهل من تلك التراجم الكبيرة الثرية بمعلوماتها، والتي أنارت درب الكثير من الباحثين.

النسيب

مثلت المرأة رمز الهام الشاعر في مختلف الحضارات والثقافات، ونسجت خيوط إيقاعية على أوتار الخطابات الشعرية، فكانت ومازالت الموضوع الجوهري للقصيدة العربية، فهي رمز الحب والجمال والرقة، فلعبت المرأة دوراً متميزاً في إذكاء قرائح الشعراء، فانطلقت ألسنهم ملتهجة للتغزل بها، فهي الزوجة ومرة حبيبة وأخرى صديقة.

ويعد الغزل من الفنون الشعرية الضاربة في القدم عند العرب، كونه يمثل الفطرة الإنسانية الطبيعية، ويصور الأحاسيس الصادقة للمحبين، فالغزل الذي يتسم بالصدق الشعوري والفني يعد من أسمى أبواب الشعر، فالحب هو العاطفة التي تعمر القلب، وهذا لا يختلف من بيئة الى أخرى، أو زمن وأخر [١]. ومن مذاهب الشعراء في مطلع القصيدة بالنسيب، لصرف القلوب واستمالت المتلقي واستدراجه، حيث ميل النفس إلى اللهو والنساء [٢].

وكان للغزل اهتمام خاص من قبل الأندلسيون، فلحياتهم المترفة وجمال الطبيعة الأثر البالغ في الشعر الغزلي والتغني به، وأقتفى الاندلسيون خطى المشرق في الغزل وتقليدهم إياه، وفي مختلف الأغراض الشعرية، حتى أطلق لقب (شعراء المشرق) على البعض منهم [٣].

وقد اختلف البلاغيون والأدباء في تعريف مصطلحات الغزل، النسيب، التشبيب، واطلعت على العديد من الدراسات التي تناولت تلك المصطلحات على تنوع مفرداتها لغةً واصطلاحاً، سنورد بعضاً منها؛ للوقوف عليها.

النسيب لغةً هو: "رقيقُ الشعر في النساء" [٤] وهو "ينسب بها منسبةً" [٥] ومنه "النسيبُ في الشعر الى المرأة، كأنه ذكر يتصل بها ، ولا يكون الا في النساء". [٦]

فالنسيب تجربة يفصح الشاعر عنها من خلال التعبير الوجداني بمشاعر صادقة نقية، بعيدا عن الرغبات والغرائز المادية. والحب هو المحرك الأساسي للجانب العاطفي، وتأثيره على الشاعر عميق، يدفعه إلى بث احزانه وآلامه بصورة شعرية ناطقة.

وكما ذكر أحمد محمد الحوفي، النسيب هو تأثير الحب وتبريح الصبابة فيما يبعثه الشاعر من الأنين الشكوى، وما يصفه من التجني، وما يذكر له من محاسن النساء [٧].

كان للنقاد العرب القدامى تمييز بين مصطلحي (النسيب) و (الغزل)، فالأول كان للشعر، والثاني للسلوك، لكن اليوم أصبح مصطلح الغزل يطلق أيضاً على الشعر [٨].

وقد أفاض قدامة بن جعفر في تبين رأيه في الغزل والنسيب منها يقول: "إن النسيب ذكر الشاعر خلق النساء وأخلاقهن، وتصرف أحوال الهوى به معهن، وأن الغزل هو المعنى الذي إذا اعتقده الإنسان في الصبوة إلى النساء نسب بهن من أجله، فكأن النسيب ذكر الغزل، والغزل إنما هو التصابي والاستهتار بمودات النساء " [٩].

ويتفق التبريزي مع قدامة بالإطار العام للفرق بين النسيب والغزل بقوله: "النسيب ذكر الشاعر المرأة بالحسن والأخبار عن تصرف هواها به وليس هو الغزل، وإنما الغزل الاشتهار بمودات النساء والصبوة اليهن " [١٠].

أما عن تشبيب الشعر: " ترقيق أوله بذكر النساء، وهو من تشبيب النار"، وتأريثها. "وشبب بالمرأة : قال فيها الغزل والنسيب؛ وهو يشبب بها أي ينسب بها". والتشبيب : " النسيب بالنساء" [١١].

وعند الجاحظ فالغزل والتشبيب سيان: "فأما الغناء المطرب في الشعر الغزل، فإنما ذلك من حقوق النساء، وإنما ينبغي أن نتغنى بأشعارِ الغزل والتشبيبِ والعشق والصبابة بالنساء، اللواتي فيهن نطقت تلك الأشعار، وبهن شبّب الرجال" [١٢].

نلاحظ بالرغم تلك الآراء والاتجاهات وتعدد تلك المسميات للغزل، الإ إنها تصب في موضوع واحد، التغزل بالمرأة وجمالها، والحب العذري والحنين وشدة التعلق بالمحبوبة، فالغزل من الفنون الأدبية الملازمة للشاعر العربي، والذي يضفي على الخطاب ذلك اللون المشرق المتوهج الذي يسر القلب عند سماعه.

لا يخفى عن القارئ ما للبيئة الاندلسية من أثر في انتشار الغزل، فللحياة المترفة ووسائل اللهو، الموسيقى، الغناء، وجمال الطبيعة وجمال المرأة الاندلسية –كما وصفهم ابن الخطيب: ""وحريمهم، حريم جميل، موصوف بالسحر، وتنعم الجسوم، واسترسال الشعور، ونقاء الثّغور، وطيب النشر، وخفة الحركات، ونبل الكلام، وحسن المحاورة، إلا أن الطّول يندر فيهنّ "– [١٣]، ليشكل النسيب الحيز الكبير في حياة شعراء الاندلس بمختلف العصور.

ويعد الغزل بمختلف موضوعاته الأكثر حضورا في كتاب الكتيبة الكامنة، مدار بحثنا، حيث سنشير إلى العديد منها :

اولاً: ذكر أيام الصبا

تبقى ذكريات الحب خالدة في قلوب المحبين ما حيو، وتبقى معها تباريح الشوق كلما مر ذكرها في الخاطر. فأيام الصبا تثير الوجد والقرائح، فتلهج القلوب قبل الألسن، بتذكر المحبين، ويبدأ صراع الذكرى، والحنين إلى أيام مضت كان فيها أشهى الأحاديث وأجمل اللقاءات.

يقول الخطيب الشيخ أبو يزيد خالد بن خالد الونالشي [١٤] في ذلك:

غرامي قديم بالحمـــــى وجديد ... وشــوقي إلى من حل فيه شــديدُ
ولي من هوى سكانه وله متى ... تــذكرت أو فكرت فيــه يزيــدُ
...
أحاديثهم أشهى لدي من الصبا ... لو ان الصـــبا يوما بذاك تجودُ
بها روح أنفاس تروح وروحها ... إذا ما للصـــبا ذاك الحديث تعيدُ
أعيدي صــبا نجد علي حديثهم ... ففي عودهــا روح الحيــاة يعودُ
وعــد يــا خليلي بــاجتمــاعي ... فيوم اجتمـاعي ذاك عنـدي عيـدُ
ارى الحــب يبلى ان تطــاول ... حبي، وان طـال الزمـان، جـديـدُ
فـلا تـبـكـروا وجـدي وفـرط ... إذا ما بدا منها علي شـــهودُ [١٥]

يشير الشاعر الى الحب القديم الجديد، فهو باق خالدٍ بل ويزيد الشوق العميق اليه والتذكر فيه، ويتمنى لو أن أيام الشباب تجود، وتعود معها تلك الأحاديث التي ترجع له روح الحياة ومتعتها التي فقدها ببعدهم. ويعتبر بأن يوم اللقاء مع محبوبته هو عيد بالنسبة اليه، ويؤكد مهما طال الزمان سيبقى هذا حبه وإخلاصه جديد.

وله أيضا معبراً عن ذكراه لمن أحب ويرسل لهم أشواقه وصبابته:

خليلي ان مررت على المغاني ... وأدنــاك اشـــتيــاقــك للمعــاني
فحي الســـاكنين هنــاك عني ... بمجموعي فؤادك واللســـــان
وصـــف شـــوقي لهم أبـدا ... بــأوصـــاف تجـل عن العيـان
وقـل مــا زال ذلكم المعنى ... يعــاني للصـــبــابــة مــا يعــاني
تضـــيق الأرض بعدكم عليـه ... كـأن الكون ضـــاق عن المكـان
وتــعــروه لــذكــراكــم جــنــون ... من الأشـــواق تعبث بـالجنـان
تخـال الصـــب حين تراه حيا ... لدى التذكار وهو هنـاك فان [١٦]

يبدع الشاعر في انتقاء الفاظ تصف حاله، وما فعل به الوجد بعد فراق الأحبة، فهو من دونهم تضيق به الأرض بما رحبت، ويصارع الجنون والفناء.

يقول أبو عبد الله بن زمرك:

ذكرتك فوق البحر والبعد بيننا فمدته من فيض الدموع بحورُ
وأومض خفاق الذؤابة بارق فطارت بقلبي أنه وزفير
ويهفو فؤادي كلما هبت الصبا أما لفؤادي في هواك نصير (١٧)

تتحدث الأبيات أعلاه عن شوق العاشق الذي تحده المسافات الطويلة عن حبيبته، وكأن من طوله البحر يحول بينهما، ويشبه بكاءه بدموع غزيرة تملأ البحر، مما يدل على عمق حزنه واشتياقه، وحين تذكر محبوبته فكأن قلبه يطير من شدة الفرح، ويحين ذكراها مع كل هبوب لأيام الصبا، في دلالة على إخلاصه لذلك الحب وتعلقه به.

وفي الحزن على تذكر أيام الشباب والصبا فيها، يقول أبو بكر محمد بن شبرين:

ظعن الصِّبا ومن المحال قفولهُ أن كنت باكيه فتلك طلولهُ
قف عنها خيل الدموع ورجلها وأندب شبابا شط عنك رحيلهُ
نزحت بثينته وليلاه معا فبكى المعاهد قيسه وجميله
رعيا لجيراني وللظل الذي قد كان يجمعنا هناك ظليله
هذي ديارهم فمثلهم بها إن المتيم شانه تمثيله
...
دع عنكَ تذكار الصِّبا أن الصبا رسمٌ يهيجُ لك الغرامَ محيلهُ (١٨)

يدعو الشاعر في الأبيات السابقة، إلى الحزن والبكاء على أيام خلت، وأصبحت بعيدة، فالزمن من المحال إيقافه، ففراق أيام الشباب التي رحلت بلا عودة مضنية، كما ويستذكر فيها حب جميل بثينة، وقيس ليلى، –حيث ما ذكر الحب ذكروا هم– ويقارن حاله بحالهم، وكيف إن أيامهم التي ولت أصبحت حزينة كحاله. فهذا حال المحب بعد أن شطت الديار بالأحباب ومضى الزمن يسارع الساعات دون هوادة لتصبح ذكريات مثقلة بالهموم والدموع.

وفي ذات المعنى له ايضاً قوله:

آها على صبوة ألوى الزمان وكل أنس لأيام الصبا تبعُ
ما أسارت غير اشواق وغير يجنه ندم يشقى به لكع (١٩)

ثانيا: البكاء

على الرغم من تنوع موضوعات الغزل في كتاب (الكتيبة الكامنة) الا أنا لاحظنا تكرار البكاء على الحبيب بصورة أكثر من غيرها من الموضوعات التي جاءت بهذا الصدد.

ولسبب أو لأخر من بكاء الشاعر على محبوبته، عادة ما تكون المشاعر صادقة ومعبرة عن عمق الحزن الذي يعتري المحب، فلا يملك غير الدموع المنسابة على الخدين، لتخفف النار التي تملأ روحه وقلبه.

يقول الشيخ الكاتب، أحمد بن صفوان القيسي، عن أن كثرة مدامعه فضحته أمام الخلق، بعد ان كان قد كتم حبه عن الناس:

إني كتمت عن الأنام هواكم ... حتى دهيت وخانني الكتمان
ووشت بحالي في الغرام مدامع ... أدنى مواقع قطرها طوفان(٢٠)

وفي ذات المعنى يقول الشيخ القاضي أبو عبد الله محمد بن يحيى:

آه من لوعتي ومما أعاني ... ضاق صدري بالسر والكتمان
كنت أخفي عن الوشاة إلى أن ... فضحتني بدمعها أجفاني
ولئن دام يا خليلي ما بي ... فاحسباني بالحب لا شك فان
ونحولي على غرامي دليل ... شاهد بالذي يجن جناني(٢١)

يضيق صدر المحب بسر كتمانه للحب ولوعته، لكن الدمع يفضح صاحبه دائما، فهو الشي الذي يصعب حبسه، –خصوصا لأصحاب المشاعر الحقيقية المرهفة–، ولو دام حاله هذا فسيكون الفناء من نصيبه، وهناك شاهد، الا وهو نحوله الذي أصبح عليه من جنونه بهذا الحب.

ويجعل الكاتب عبد العزيز بن أحمد، من الدموع تنطق من شدة الوجد الذي يخالجه:

القلب يعشق والمدامع تنطق ... برح الخفاء فكل عضو ينطقُ
أن كنت أكتم ما أجن من ... فشحوب لوني في الغرام مصدق
وتذللي عند اللقا وتملقي ... أن المحب إذا دنا يتملق
فلكم سترت من الوجود محبتي ... والدمع يفضح ما يسرُّ

فكل جزء منه يبوح بهذا الحب، ولو ظل يكتم ما يشعر به تجاه المحبوب لشحب لونه وذبل، فهو من ذل نفسه لتقربه من الحبيب، ومهما حاول ان يخفي ذاك العشق، تأتي دموعه لتفضحه في كل مرة.

الكاتب أبو عبد الله بن زمرك:

قيادي قد تملكه الغرام ... ووجدي لا يطاقُ ولا يرامُ
ودمعي دونه صوبُ الغوادي ... وشوقي فوقَ ما يشكي الحمام
إذا ما الوجد لم يبرح فؤادي ... على الدنيا وساكنها السلام(٢٣)

يصف الشاعر حاله وما يعانيه من شدة الوجد الذي لا يطيق له حمل، ودمعه الذي كالسحابة الممطرة في النهار لا تتوقف، ويستعير شوق الحمام ليسقطها على حزنه الذي يكون أعظم وأشد، وطالما هذا الحب يسكن في قلبه، فلن ينعم بالراحة، وعلى الدنيا السلام.

بأسلوب طلبي يستغيث الشاعر بالنداء ليلفت الاسماع، في صورة شعرية أبدع الشاعر فيها من طلب المساعدة لمن يعاني من الغرام كحاله ؛ ليبكيان معا، يقول محمد بن مالك النفزي:

يا للرجال الأحبِّ يســـاعدني ... في ذا الغرامِ فـابكيــه ويبكيني
غلبت فيه وما أجدتْ مغالبتي ... وهنـت، والصـــب أولى النـاس
...
فكم أكفكف دمعي بعدهم وارى ... مجددا نـار يـأســـي وهي تبليني
وكم أمر على الأطلال انـدبهـا ... وبــالمنــازل من خيف ودارين
وفي الفؤاد لهم ما ليس يعلمه ... الأهم علمهم بــالحــال يكفيني
أهمـي المـدامـع كـي أروى ... والــزم الــذكــر لــلســـلــوى

فحاول المحب أن يكف دمعه بعد فراق الأحبة، لكن تتجدد النار في قلبه، وكلما مر على ديارهم عاد ذلك الندب والحزن لتذكرهم.

يقول الكاتب الرئيس أبو إسحاق الساحلي الانصاري:

دعِ العين تذري الدمعَ في طللِ ... فليس حراماً أن أريق بـه دمعي
وحدث عن القوم الذي عهدتهم ... أحلوا بنجد أم أقاموا على ســلع
وإن لم يكن قـد فـاز طرفي ... إليهم فحســبي أن يفوز بهم
ذكرتك يا نجد ففاضت مدامعي ... أي نصير للمحب سوى الدمع(٢٥)

في خطابات شعرية كررها الشعراء، يصف الشاعر حالة عينه وهي تذرف الدموع على طلل الاحباب، فليس عيبا ان أذرف الدمع على فراقهم، ويسأل بعدها أين حلوا واستقروا، حتى وان لم يعرف لهم طريق ليراهم، فيكفي ان يسمع عنهم اخبارهم، وكلما يذكرهم تفيض دموعه عليهم، فهي من يواس المحب.

ثالثاً: اوصاف الحبيب

استعان الشعراء في عادتهم لأوصاف الحبيب، بالتشبيهات والاستعارات البلاغية، وبعض الحركات والألوان وخلط جمال المحبوبة بجمال الطبيعة، وهذه من شأنها أن ترضي مشاعر المرأة وتزيد من ثقتها بالمحب وصدقه عادة، كما ولتلك المحسنات البديعية دور من إضفاء رونق وبهاء للنص الشعري.

وعادة ما تكون تلك الأوصاف متشابهة، لكن طريقة إبداع الشاعر في رسمها باطار غزلي تختلف من أحد لأخر، فمثلا في جمال العيون ورشاقة الجسم، تشبه المحبوبة بالغزال، والوجه كالقمر والشمس، والشعر كالليل لسواده وطوله في قلوب العشاق، والخدود والشفاه بالنرجس والتفاح، والصوت الناعم كالآلات الموسيقية ذات الإيقاع الحسن، والثغر كاللؤلؤ، كقول الخطيب أبو عبد الله البدوي الحاج البلشي:

خـالٌ على خـدّيـكَ أم عنبرُ ولـؤلـؤٌ ثـغـرك ام جـوهـرُ
اوريتَ نارَ الوجد طيَّ الحشا فصـــارتِ النار بها تســـعر(٢٦)

يصف البلشي في الخطاب أعلاه جمال محبوبته، فالخدين كالعنبر في عطرها وصفائها، والأسنان كاللؤلؤ والجواهر لبريقها ولمعانها ورونقها البهي. وعند رؤيتها شبت نار الحب في قلب الحبيب وأخذت تنتشر في باقي جسمه.

وفي إشارة إلى تقلب المزاج، بين القساوة واللطف، يشبه الشاعر محبوبته بالغزال، بقوله:

ريـمٌ أرومُ حـنـوَّه وجـنـوحـهُ ويـرومُ عـنـي جفوةً وجمـاحـا
أبدي لنـا من شَـــعره وجبينـه خدين ذا ليلا وذا إصـــبـاحـا(٢٧)

فهي تجفو عنه وهو المحب الولهان الذي يرغب بقربها، ثم يطلب اظهار شعرها ووجنتها، التي تكون مشرقة بالليل أو النهار على حد سواء.

الساحلي الانصاري:

عيونُ سحابٍ أم سحابُ عيونِ ســقتَ صــوبَ نعمانٍ بصــوبِ

العيون لها تأثير مباشر على قلب المحب، وكان للشعراء وقفة طويلة عندها، وتنوعت الصور الشعرية التي وظفت لوصف العين، وهنا يصف العين بالسحاب والعكس صحيح، فالسحابة التي تكون محملة بالأمطار فتسقي الأرض وترويها بعد العطش.

وفي لغة شعرية بسيطة تناسب الغرض الشعري، يصور الشاعر محبوبته، بشيء من التفصيل، فيقول:

ومورّدِ الوجناتِ معسولِ اللمى فتـاكِ لحظِ العين في عشـــاقـه
الخمرُ بين لِثَـاتِـهِ والزهرُ في وَجَنـاتـه والســـحرُ في أحداقـه
ميادُ غصـــنِ البانِ في أثوابه ويلوحُ بـدرُ التمّ في أطواقـه
من لـلـهلالِ بـخـده أو ثـغره هـبْ أنـه يحكيـه في إشـــراقـه
ولقد تشـــبهتِ الظباءُ بِشُـــبهةٍ من خَلقِه وعجزنَ عن أخلاقه(٢٩)

من الأوصاف التي انسابت على السن الشعراء، وصف الوجنات باللون الأحمر كالزهر، دلالة على الحسن الخجل، مع حلو الكلام، والنظرة القاتلة للعاشق التي تصيب القلب فتسحره، ولها مشية تمايل وغنج كغصن البان الطويل الممشوق، فهو كالبدر في حسنه وأنواره، وجعل الشاعر من الظباء هذه المرة هي من تتشبه بالحبيب، لكنها عجزت أن تنال الشرف في أن تكون مثل اخلاقه.

ولابي يزيد خالد بن خالد الونالشي قول عن جمال محبوبه الذي سلبه العقول:

آياتُ حسنكَ حُجةً للتالي ... في الحب قائمةً على العذالِ
يا من سبا طوعا عقولَ ذوي ... ببلاغةٍ قد أيدَت بجمال
يستعبدَ الأبصارَ والإسماع ما ... يجلو ويتلو من سنيٍّ مقال(٣٠)

رابعا: نار الحب

تلك النار التي تسعر في قلب المحب من نار الحب، لا تنطفئ ولا تنضب في داخله، فالحب الصادق هو من يشعر الحبيب بتلك النار ولوعتها الحقيقة، ومن هنا يطلق الشاعر العنان للتعبير عن العارض النفسي الذي يختلجه من جوى الصبابة، لتظهر تلك المشاعر الإنسانية النبيلة بصورة جلية للعيان، ليسطر بها عمق حزنه وينقل مشاعره والاضطراب الذي يختلجه، بخطابات شعرية إبداعية فيها من المحسنات البلاغية ما فيها، سهلة المعنى تصل الى القلب قبل السمع.

يقول أحدهم:

جاد الغمامُ بصوبه الهتانِ ... يحكي أنسكاب الدمع من أجفاني
وحكت بروق أبرقت بخلال ... نار الصبابة والهوى بجنابي
وسرت على البطحاء أنفاس ... فسرى الجوى بجوانح

يستوحي الشاعر من غزارة المطر وبرق الرعد فكرة ليشبه عما يشعر به من نار الصبابة، ويعبر عن ذلك الهيام والشوق الذي يسكن جوانحه.

وللشيخ الونالشي، ابيات شعرية مشابهة لما سبقها يقول فيها:

وفي الحب من انفاس نفسي ... دموعا شكت من حرهن خدودُ
بحشو الحشا نار الصبابة ... فمن حرها بين الضلوع وقودُ(٣٢)

فلا يخلو حب من دون بكاء وآهات وحسرات وشوق وتعلق، هذا ما يترجمه الشاعر في نصوصه بصورة فنية لتصل إلى المتلقي فيشعر بصدق العاطفة التي يحملها المحب تجاه الحبيب.

الخطيب أبو عبد الله البدوي الحاج البلشي:

عيناي تفهم من عينيك أسرارا ... وورد خديك يذكي في الحشا نارا
ملكت قلب محب فيك مكتئب ... قد اثر الدمع في خديه آثارا(٣٣)

تعد اللغة أعظم إنجاز بشري، فهي من تربط المجتمع مع بعضهم البعض، لكن هنا الشاعر جعل عينه تفهم لغة واسرار الحبيب دون النطق بها، وجمال الخدين كالورد هو من يزيد في استعار النار في قلب المحب، حتى ملكه، وجعل أثر الدمع لا يمحى من خديه.

الفقيه أبو عبد الله محمد اللخمي الطرسوني يقول في نار الاشتياق:

وقد ينزع القلب الشجي لسلوة ... كما اهتز من قطر الغمامة طائر
ونار اشتياقي صعدت مزن ... فمضمر سري فوق خدي ظاهر
وقد كنت باكي العين، والبين ... فقل: كيف حال الدمع، والبين

يتضح في النص الشعري أعلاه، نزعة الحزن والحنين للحبيب، حيث يبحث الشاعر عن من يسليه في ظل الضياع الذي يشعر به ويخرجه من ذلك الغم، كالطائر الذي ترفرف اجنحته فرحا بالمطر، الذي تهديه إياه الغمامة، وكغيره من الشعراء استعان الطرسوني بالمزن ليشبه دمعه بها، فهو يبكي على فراق الحبيب وبعده، ويتسأل متعجباً دون أن ينتظر الجواب، يا ترى كيف سيكون الدمع مع حضور الغائب؟

وعن غرامه وحزنه ونار الحشى والشجون ودموع الجفون، يقول الساحلي الانصاري:

وما لرباها بعد ليلى تلفعت ... غراماً وحزناً في مطارف جون
وقفت بها أذكي حشاي واتقي ... بفضل ردائي واكفات شئوني
فطوراً أرويها وطوراً اشبها ... بنار شجوني أو بماء جفوني(٣٥)

ويقول اخر:

أودع الشوق ضلوعي عابثا ... ورمى النار بقلبي فاشتعل(٣٦)

خامساً: الشكوى من الهَجر والبُعد

يقول ابن حزم عن الهجر: "وهو الذي خلى العقول ذواهل، فمن دهي بهذه الداهية فليتصد لمحبوب محبوبه، وليتعمد ما يعرف أنه يستحسنه" (٣٧). فالشكوى تأتي من التوجع والألم والتحسر، وتكون بعيدة عن التصنع والمبالغة والتكلف، فهي نابعة من قلب محب مكلوم، يصب مشاعره بشكل خطابات شعرية ينفس بها عن داخله، لتصل إلى المقصود بصورة صادقة، علها تقع في نفس الحبيب.

يقول ابن قتيبة: "أنّ مقصّد القصيد إنّما ابتدأ فيها بذكر الديار والدّمن والآثار، فبكى وشكا، وخاطب الرّبع، واستوقف الرفيق، ليجعل ذلك سببا لذكر أهلها الظاعنين عنها... ثم وصل ذلك بالنسيب، فشكا شدّة الوجد وألم الفراق، وفرط الصبابة والشوق، ليميل نحوه القلوب، ويصرف إليه

الوجوه، وليستدعى به إصغاء الأسماع إليه" فالتشبيب قريب للنفس محبب للقلب ملتصق به، وذلك يعود إلى أن الله فطر الإنسان على حب الجمال والتغزل به. فلا يخلو شخص من هذا التعلق سواء أكان حلالاً أم حراماً [٣٨].

الشيخ القاضي أبو عبد الله محمد بن يحيى:

مذ زمان قد كنت أخفي ولكن نحولي لم يدرِ مني مكاني
يا فؤادي صبرا عسى من بالبعد يقضي من بعده بالتداني
يا زمان الوصال هل من رجوع حفظ الله عهد ذاك الزمان[٣٩]

يكشف الشاعر عن ما أصابه من بعد الحبيب، فهو الذي كان يخفي الحب في داخله، لكن نحول الجسد فضحه، ويواسي نفسه ويصبرها عله يظفر بقرب من يوده بعد الفراق، وهل يعود زمان الوصل؟ فهو يحن إلى الماضي، مع الدعاء بحفظ ذكريات ذلك الزمان الذي كان فيه على تواصل مع الحبيب.

القاضي أبو القاسم محمد:

يا هاجري يا قاتلي بصدوده أحللت لا بالشرع قتل المسلمِ
هذا نجيعي فوق خدك شاهد أجنيت حتى حل قتلي أو دمي[٤٠]

يفتتح الشاعر خطابه بياء النداء مكررا إياها مرتين، مرة تلو الاخرى، لينقل صورة ذلك الألم والتحسر الى المتلقي، للاضطراب الذي يعيش به المحب من جراء البُعد، فهو كالذي قتل بسبب الحب، وهذا ما لم يشرع به الدين والعرف.

يعبر الشاعر عن حبه العميق واستعداده للتضحية من أجل الحبيب، فقط لو عفى عنه وترك الهجر وعاد لوصله، والا فالهلاك مصيره، يقول أبو عمرو النفزي:

سريّ يسرّ اليك أنك تاركي نفسي فداكَ للطفك المتداركِ
يا مالكي ولي الفخارُ فانني لك في الهوى ملكٌ وإنكَ مالكي
التّركُ هُلكي فاعفني منه وعد بالوصل تُحي ذّ ما محبٍ هالك
واعد جميلاً في الهوى عودتني إن لم تُعِدهُ إليَّ من للهالك
...
ولقد عرفت بستر سري في فهجرتني فكسيت ثوب الهاتك[٤١]

ولابن محمد الصباغ العقيلي، أبيات شعرية تحمل بين طياتها العاطفة الصادقة، عبر عنها بألفاظ بسيطة قريبة من القلب، يقول فيها:

يكادُ فؤادي أن يطير أســـىً إذا ... أفكر في إنجـاز وعـدِكِ بـالقربِ
أقولُ: متى أو كيف يســـمحُ ... بســاعة وصــلٍ قبل أن ينقضــي
...
بحرمـة مـا بيني وبينـك عجلي ... وصـالك لي تسـتوجبي الأجرَ من

ينتظر المحب لقاء الحبيب حتى وان طال الوعد، ويتسأل الشاعر عن زمان الوصل ولو بساعة واحدة قبل ان ينقضي ذلك العمر، ثم يستعطف حبيبته بأن تعجل بهذا اللقاء، عسى ان تؤجر على ذلك.

ومن شكوى الهجر، والدعوة إلى الوصل يقول أحدهم:

كففـتُ عن الوصـــالِ طويـلَ ... إليـكَ وأنـت للـروح الـخلـيـلُ
وكفك للوصـــالِ فدتك نفســـي ... قبيحٌ ليس يرضـــاه الخليـل(٤٣)

ويقول أخر:

الآن تطلبُ ودَّها ووصـــالها ... من بعدما شَـــغلت بهجركَ بالها
وقد اســـتحالت فيك ســـيماءُ ... حـالا يروع مثلهـا أمثـالهـا(٤٤)

واختصر ابن حزم الحب في قوله: "وقد اختلف الناس في ماهيته وقالوا وأطالوا والذي أذهب إليه أنه اتصال بين أجزاء النفوس المقسومة في هذه الخليقة في أصل عنصرها الرفيع " (٤٥).

الخاتمة

وبعد استعراضنا للمحة من الأجواء الغزلية التي كانت حاضرة عند شعراء المائة الثامنة في كتاب الكتيبة الكامنة، تبين الاتي:

عمد الشعراء إلى التعبير عن حبهم بعيدا عن التكلف والتصنع، فقد جاءت الخطابات صادقة عفوية تقع في النفس عند سماعها، بألفاظ سهلة لينة، افصحت عن خلجات نفسية كان يعيشها الشاعر، بتعلقه بالحبيب، وتكبده القهر والألم لفترات طويلة، فقد غلب على الابيات الشعرية طابع الحزن والبكاء والشكوى والمعاناة النفسية والشوق وحرق القلب، فلا يوجد حب بدون لوعة.

فالغزل يعد بيئة خصبة للأديب، فهو كقاموس عشق يتصفحه كلما داهمته ذكريات أيام الصبا، بالرغم من عذاب الحب ومرارته، لكن لا غنى عنه.

الهوامش

(١) ينظر: الغزل في العصر الجاهلي، د. أحمد محمد الحوفي، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٦١م، ص ١٢، ١٣.

(٢) ينظر: العمدة في محاسن الشعر وأدبه، أبو على الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي (المتوفى: ٤٦٣ هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، الطبعة الخامسة، ١٩٨١م، ج١/ ٢٢٥.

(٣) ينظر: الغزل في الشعر العربي، سراج الدين محمد، دار الراتب الجامعي، بيروت – لبنان، ص ٦٥ .

(٤) لسان العرب، محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى (المتوفى: ٧١١هـ)، دار صادر – بيروت، الطبعة الثالثة ، ١٤١٤ هـ،ج١/ ٧٥٦ .

(٥) تهذيب اللغة، محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور (المتوفى: ٣٧٠هـ)، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠١م، ج١٣، ١٢.

(٦) مقاييس اللغة، حمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (المتوفى: ٣٩٥هـ)، تحقق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م، ج٥/ ٤٢٣ .

(٧) ينظر: وحي النسيب في شعر شوقي، احمد محمد الحوفي، مطبعة العلوم، مصر، الطبعة الأولى، ١٣٥٢هـ – ١٩٣٤م، ص١.

(٨) ينظر: بحث شعر النسيب وسلطة الخلافة، أ.د. دواد سلوم، د. محمد احمد ربيع، مجلة كلية الآداب، جامعة بغداد، العدد ٥٥، ٢٠٠١م، ص ١٧٤ .

(٩) نقد الشعر، قدامة بن جعفر بن قدامة بن زياد البغدادي، أبو الفرج (المتوفى: ٣٣٧هـ)، تحقيق: د. محمد عبد المنعم الخفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ص ١٣٤.

(١٠) شرح ديوان الحماسة ، يحيى بن علي بن محمد الشيبانيّ التبريزي، أبو زكريا (المتوفى: ٥٠٢هـ)، دار القلم، بيروت، ج٢/ ٥٩.

(١١) لسان العرب، ج١/٤٨١. القاموس المحيط، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروز آبادى (المتوفى: ٨١٧هـ) تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة ، بإشراف: محمد نعيم العرقسُوسي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، الطبعة: الثامنة، ١٤٢٦ هـ – ٢٠٠٥ م، ص ٩٩. الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، أبو نصر إسماعيل بن حماد

الجوهري الفارابي (المتوفى: ٣٩٣هـ)، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين – بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧ م، ج ١/١٥١.

(١٢) رسالة العشق والنساء ومجموعة رسائل الجاحظ، لابي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٣٤٨هـ _ ١٩٦٤م، ص ١٦٥.

(١٣) الإحاطة في أخبار غرناطة، محمد بن عبد الله الغرناطي الأندلسي، أبو عبد الله، الشهير بلسان الدين ابن الخطيب (المتوفى: ٧٧٦هـ)، حققه ووضع مقدمته وحواشيه محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٩٣هـ، ١٩٧٣م، ج١/ ١٣٩. اللمحة البدرية في الدولة النصرية، لسان الدين ابن الخطيب، دراسة وتحقيق د. محمد مسعود جبران، دار المدار الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٩م، ص ٦٦.

(١٤) ترجم لسان الدين ابن الخطيب في كتاب "الكتيبة الكامنة" لجميع من ورد ذكره في البحث، لذا لم نقف عندهم؛ منعا للإطالة.

(١٥) الكتيبة الكامنة في من لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة، لسان الدين بن الخطيب، محمد بن عبد الله (المتوفى: ٧٧٦هـ)، تحقيق: احسان عباس، دار الثقافة، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٦٣م، ص ٥٧– ٥٨.

(١٦) المصدر السابق، ص ٥٩.

(١٧) المصدر السابق، ص ٢٨٧.

(١٨) المصدر السابق، ص ١٦٧.

(١٩) المصدر السابق، ص ١٧٠.

(٢٠) المصدر السابق، ص ٢٢٢.

(٢١) المصدر السابق، ص ١٠٤–١٠٥.

(٢٢) المصدر السابق، ص ٢٩٤– ٢٩٥.

(٢٣) المصدر السابق، ص ٢٨٨.

(٢٤) المصدر السابق، ص ٤٣.

(٢٥) المصدر السابق، ص ٢٣٧.

(٢٦) المصدر السابقِ، ص ٥٥.

(٢٧) المصدر السابق، ص ٨٣.

(٢٨) المصدر السابق، ص ٢٣٦.

(٢٩) المصدر السابق، ص ٢٢٤.

(٣٠) المصدر السابق، ص ٦٠.

(٣١) المصدر السابق، ص ٣٠٣.

(٣٢) المصدر السابق، ص ٥٧.

(٣٣) المصدر السابق، ص٥٦.

(٣٤) المصدر السابق، ص ٧٦.

(٣٥) المصادر السابق، ٢٣٦.

(٣٦) المصادر السابق، ص ٢٩٠.

(٣٧) طوق الحمام في الألفة والألاف، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري (المتوفى: ٤٥٦هـ)، تحقيق: احسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت – لبنان، الطبعة الثانية، ١٩٨٧م، ص ٢٠٢

(٣٨) ينظر: الشعر والشعراء، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (المتوفى: ٢٧٦هـ)، تحقيق: احمد محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة، (د.ط)، (د.ت)، ج١/ ٧٥ – ٧٦.

(٣٩) المصدر السابق، ص ١٠٥.

(٤٠) المصدر السابق، ص ١١٠.

(٤١) المصدر السابق، ص ٤٤.

(٤٢) المصدر السابق، ٢٣٠.

(٤٣) المصدر السابق، ص٢٢٢.

(٤٤) المصدر السابق، ص ٦٢.

(٤٥) طوق الحمام، ص ٩٤.

المصادر

١. الإحاطة في أخبار غرناطة، محمد بن عبد الله الغرناطي الأندلسي، أبو عبد الله، الشهير بلسان الدين ابن الخطيب (المتوفى: ٧٧٦هـ)، حققه ووضع مقدمته وحواشيه محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٩٣هـ، ١٩٧٣م.

٢. تهذيب اللغة، محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور (المتوفى: ٣٧٠هـ)، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠١م.

٣. رسالة العشق والنساء ومجموعة رسائل الجاحظ، لابي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٣٤٨هـ _ ١٩٦٤م.

٤. شرح ديوان الحماسة ، يحيى بن علي بن محمد الشيبانيّ التبريزي، أبو زكريا (المتوفى: ٥٠٢هـ)، دار القلم، بيروت.

٥. شعر النسيب وسلطة الخلافة، أ.د. دواد سلوم، د. محمد احمد ربيع، مجلة كلية الآداب، جامعة بغداد، العدد ٥٥، ٢٠٠١م.

٦. الشعر والشعراء، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (المتوفى: ٢٧٦هـ)، تحقيق: احمد محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة، (د.ط)، (د.ت).

٧. الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (المتوفى: ٣٩٣هـ)، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين – بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧ م.

٨. طوق الحمام في الألفة والألاف، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري (المتوفى: ٤٥٦هـ)، تحقيق: احسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت – لبنان، الطبعة الثانية، ١٩٨٧م.

٩. العمدة في محاسن الشعر وأدبه، أبو على الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي (المتوفى: ٤٦٣ هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، الطبعة الخامسة، ١٩٨١م.

١٠. الغزل في الشعر العربي، سراج الدين محمد، دار الراتب الجامعي، بيروت – لبنان.

١١. الغزل في العصر الجاهلي، د. أحمد محمد الحوفي، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٦١م.

١٢. القاموس المحيط، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروز آبادى (المتوفى: ٨١٧هـ) تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة ، بإشراف: محمد نعيم

العرقسُوسي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، الطبعة: الثامنة، ١٤٢٦ هـ – ٢٠٠٥ م.

١٣. الكتيبة الكامنة في من لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة، لسان الدين بن الخطيب، محمد بن عبد الله (المتوفى: ٧٧٦هـ)، تحقيق: احسان عباس، دار الثقافة، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٦٣م.

١٤. لسان العرب، محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى (المتوفى: ٧١١هـ)، دار صادر – بيروت، الطبعة الثالثة ، ١٤١٤ هـ.

١٥. اللمحة البدرية في الدولة النصرية، لسان الدين ابن الخطيب، دراسة وتحقيق د. محمد مسعود جبران، دار المدار الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٩م.

١٦. مقاييس اللغة، حمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (المتوفى: ٣٩٥هـ)، تحقق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م.

١٧. نقد الشعر، قدامة بن جعفر بن قدامة بن زياد البغدادي، أبو الفرج (المتوفى: ٣٣٧هـ)، تحقيق: د. محمد عبد المنعم الخفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان.

١٨. وحي النسيب في شعر شوقي، احمد محمد الحوفي، مطبعة العلوم، مصر، الطبعة الأولى، ١٣٥٢هـ – ١٩٣٤م.